مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد:24 عدد: 51 السنة: 2020

إكرام الضيف في المجال الكتامي أثناء الدعوة الإسماعيلية
بين العوائد المحلية والتجاذبات السياسية

Hospitality throughout Kutama during the Ismaili da'wa between local revenues and political rivalries

د. رضا بن النية
جامعة محمد لمين دباغين . سطيف 2
ridhabennia@gmail.com

تاريخ الوصول: 2020/04/09 القبول: 2020/05/31 /النشر على الخط: 2020/06/15
Received: 09/04/2020 / Accepted: 31/05/2020 / Published online : 15/06/2020

ملخص:

تروم هذه الدراسة إلى رصد أشكال حضور ظاهرة الكرم والضيّافة بالمغرب الأوسط، مُتخذة من المجال الكتامي حقلا ميدانيا لها، بداعي تعدّد النصوص المصدرية التي تناقلت أخبار الكرم الكتامي، إلى جانب بلوغ هذه الظاهرة ذروتها فيه خلال الحقبة المقترحة للدراسة .

وقد انبنت مقاربتنا لهذا الموضوع على شقين، ارتكز أولهما على ملاحقة تمثّلات الظاهرة في شقها الاجتماعي من حيث عوامل فشوها، والطقوس والأعراف التي أطّرتها، دون أن نغفل عن الحفر في رمزيتها الاجتماعية وبُعدها القِيمي، كما اختصّ جزء منه بتقديم قراءة نقدية تحليلية مقارنة لرواية بذل الكتاميين أنفسهم وأولادهم لمن يحل بهم من الضيفان بين المصداقية والإشاعة .

وعرّجنا في الشق الأخر من هذه الدراسة على الضيّافة الكتامية لأبي عبد الله الشيعي التي كانت محل تجاذب سياسي مذهبي بين أنصار المشروع الإسماعيلي وغرمائهم، وأثر نشاطه الدعوي في أشكال الحضور الحقلي للظاهرة محل المعاينة ومؤشراتها .

الكلمات المفتاحية: الكرم – الضيّافة – المغرب الأوسط – كتامة – الإسماعيلية

Abstract:

This study, aims at investigating the phenomenon of generosity and hospitality in the middle Maghreb and its different forms, taking Kutama as the field of study, due to the availability of the sources that reported the tales of Kutama's generosity which have reached its peak during the period proposed by the study.

Our approach to this subject has been based on two parts; the first of which was based on examining the social phenomena in terms of its spread, the rituals and customs that framed it, without ignoring its social symbolism and its value dimension. A part of the study is specialized in a critical comparative analytical reading of the novel about the Kutamian sand their children made great efforts to satisfy their guests, swinging between credibility and rumor.

In the other part of this study, we dealt with the Kutamian hospitality of Abu Abdullah al-Shi'i, who was the subject of political doctrinal attraction between the proponents of the Ismaili project and their opponents, the impact of his doctrinal movement in the forms of scope of the phenomenon which is under study and its indicators.

Keywords: generosity, hospitality, Middle Maghreb, Kutama, Ismaili

1. مقدمة:

تشترك القبائل المغربية في جملة من الخصائص والصفات التي أفردتها بشخصية مستقلة لاسيما في الفضاءات الريفية والبدوية، وشكّلت العادات والتقاليد بحمولتها القِيمية التراكمية إحدى أبرز العناصر التي رسمت هويتها، وصنعت الملمح العام لذهنيتها التي تتمظهر في طباع الأفراد وممارساتهم، على غرار سلوك الكرم[1] والضيّافة الذي تنافست قبائل المنطقة في نحيه، وتفاخرت فيما بينها في تناقل فضائله، وهو الأمر الذي استوقف كثيرا من الرحّالة والمؤرخين الذين نقلوا لنا أخبارها.

وقد اصطفينا المجال الكتامي[2] كعيّنة حقلية لدراسة عادات إكرام الضيف في الوسط القبلي المغربي، لاقتران كثير من الإشارات المصدرية التي تناولتها بهذا المجال، لاسيما خلال فترة النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، التي صاحبها نشاط دعوي إسماعيلي حثيث كان له أثر بالغ في تبلور الكيان الكتامي، وكان من إفرازاته في شقه الاجتماعي إحياء وتنشيط بعض العادات والتقاليد المتأصّلة لدى قبائل المنطقة على غرار الولاء، والإجارة، والنجدة، إلى جانب الكرم وإطعام المارّة والنزلاء الذي نما مؤشر حضوره عند الكتاميين خلال هذه المرحلة في أعقاب نزول أبي عبد الله الداعي[3] بين ظهرانيهم.

ونروم من خلال هذه المقاربة إلى استجلاء معالم ظاهرة الكرم التي امتزج فيها الاجتماعي بالسياسي في أثناء النشاط الإسماعيلي ببلد كتامة، عبر رصد عوائد ساكنته وأعرافهم في استقبال الضيفان وإكرامهم، والحفر في رمزيتها وبُعدها القِيمي، وتعقّب أثر الدعوة الإسماعيلية بمجالاته في طبيعتها ومؤشر حضورها.

وللإجابة عن هذه الإشكاليات قسّمنا دراستنا إلى شقين، بحث أولهما في المعطى الاجتماعي للظاهرة عبر تسليط الضوء على مغذياتها وعوامل انتشارها، ثمّ التعريج على تمثّلاتها وبعض الطقوس المؤطِّرة لها، كما كانت لنا فيه وقفة نقدية لرواية البذل الكتامي للضيفان، واعتنى الشق الثاني منها بالحضور السياسي للضيّافة في زمن النشاط الإسماعيلي وتداعياته على المنطقة، وقد استدعى سبر أغوار هذه القضايا أن نمازج بين عدة مناهج بحثية تنوعت بين الاستقراء والتحليل والمقارنة.

---

[1] يورد مسكويه الكرم ضمن الفضائل المندرجة تحت صفة السخاء، ويتصل في جوهره بمبادرة المرء المتصف به إلى البذل بسخاء وبطيب خاطر، ووضع كل ما هو محل حوزه وقيد تصرفه من جاه ونفس ومال، وتسخيره في خدمة كل ما جلّ قدره. انظر: **تهذيب الأخلاق**، تحقيق: عماد الهلالي، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2011، ج1، ص 265

[2] إنّ ربط تجليات ظاهرة الكرم عند كتامة بالفترة الزمنية للدراسة يحصر المجال الكتامي الذي تشمله عملية البحث والتقصي في التحديد الجغرافي الذي ضبطه ابن خلدون لهذا القبيل المنحصر بين جبال زواوة غربا إلى مشارف جبل أوراس شرقا، ويمتد شمالا على سيف البحر بين بونة وبجاية. انظر: **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**' تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001، ج6، ص 195. وحول الضبط الدقيق للمعالم الحدودية لمضارب قبيلة كتامة، انظر: موسى لقبال، **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية – منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري –**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 98 – 99

[3] هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا، من أهل الكوفة، اشتغل بالحسبة، وقيل بتعليم الصبيان. حول أهم محطات سيرته، انظر: القاضي النعمان، **كتاب افتتاح الدعوة**، تحقيق: فرحات الدشراوي، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر) والشركة التونسية للتوزيع (تونس)، 1986، ص 30 – 31، اليماني محمد بن محمد، **سيرة الحاجب جعفر**، نشره: و.إيفانوف، مجلة كلية الآداب للجامعة المصرية، القاهرة، 1936، مج 4، ج1، ص 121، الداعي إدريس عماد الدين القرشي، **عيون الأخبار وفنون الآثار**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص 83 وما بعدها.

2. أخبار الكرم الكتامي في مصادر المرحلة . رسالة افتتاح الدعوة أنموذجا[1].:

توزّعت أخبار الكرم والضيّافة عند قبيلة كتامة خلال فترة الدراسة بين صنفين من المصادر، يتصل أحدهما بكتب الرحلة، التي ركّزت في مضمونها على جغرافية الكرم بالمنطقة، ووصف بعض مشاهد طقوسه وأعرافه التي كانت سائدة بين أهله، دون أن تغفل عن ربطه في بعض أجزائها بالنشاط الإسماعيلي في مضاربها، كما نقرأه في بعض نصوص مؤلفات: **صورة الأرض**[2]، و**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**[3]، و**آثار البلاد وأخبار العباد**[4]، على ما سنتناوله بالدراسة والتحليل في المحور الموالي.

في حين يتصل الصنف الثاني بالمصادر الإخبارية وكتب التاريخ العام على اختلاف مذاهبها ومشاربها، التي نستشف من خلال مضامين نصوصها المتعلقة بأخبار الكرم وأعرافه في الوسط الكتامي خلال فترة الدعوة الإسماعيلية أنّها ارتبطت في مجملها بمحورين، يقترن أولهما بمسار رحلة أبي عبد الله الداعي إلى بلد كتامة، وثانيهما بأحداث نشاطه الدعوي في مجالاتها، كما أنّ التدقيق في بنية خبرها، وأسلوبه، وترتيب أحداثه، يكشف عن تشابه في مادتها، وتقارب في نسجيها، مع تفاوت نسبي في حجم التقاطع ومواضعه، وهو ما يرجّح بأنّ هذه النصوص تنهل من أصل مشترك، مع اختلاف في طرق سوق الخبر وتدوينه .

وبالاستناد إلى أقدمية إشارات الكرم الكتامي التي أوردها القاضي النعمان (ت 363هـ / 974م) المعاصر لفترة بحثنا، وتبعا لتناغم أخبار كرم هذا القبيل التي ساقتها المصادر الأخرى مع إشارات مؤرخ الإسماعيلية في نسيجها، ومحاورها، وبعض مشاهدها، إلى جانب عدم وجود رواية أخرى تضاهيها في قيمتها ومصداقيتها يمكن أن نستند إليها، فإنّ أصل هذه النصوص على الأرجح هو كتاب "**رسالة افتتاح الدعوة**" لأبي حنيفة النعمان بن حيون التميمي، الذي نقل لنا صورا مختلفة عن واقع الكرم خلال المرحلة المدروسة كما يُظهره الجدول الموالي:

المُضيف	الضيف	الشاهد المصدري	ص
حجاج كتامة	أبو عبد الله الداعي	" اشتروا له شاة، فذبحوها، وهيأوا له طعاما ...فأتوه بالطعام، فقال: ما هذا؟، قالوا هذه سنتنا في ضيفنا ".	35
سماتة[5]	حجاج كتامة	سوجمار[6] سنة 280هـ/ 893م: " أنزل السماتيون كل واحد من الكتاميين عند رجل منهم بحسب ما يفعلونه بالأضياف الجماعة إذا حلوا بالقوم، فذبح كل واحد منهم شاة لضيفه، واحتفل في بره وإكرامه".	40 - 41
أبو عبد الله	حجاج كتامة	" ذبح غنما كثيرا ومشى إلى الكتاميين ... فأقسم عليهم أن يقيموا عنده يومهم ".	

[1] فرغ النعمان من تأليفه سنة 346 هـ / 957 م على ما نبّه إليه فرحات الدشراوي. انظر: افتتاح الدعوة، المقدمة، ص: و

[2] ابن حوقل أبو القاسم محمد النصيبي، دار صادر، بيروت، د. ت، ج1، ص 93، 96

[3] الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد الشريف، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ج1، ص 269

[4] القزويني زكريا بن محمد بن محمود، دار صادر، بيروت، د. ت، ص 164

[5] من بطون نفزاوة، ويستشف من نص القاضي النعمان أنّ مضاربها تقع على مشارف الحدود الشرقية للمجال الكتامي، كما أشار ابن خلدون إلى فروع منهم بنواحي القيروان. انظر : افتتاح الدعوة، ص 40، العبر، ج6، ص 152

[6] يدرج موسى لقبال، المرجع السابق، ص 221 موضعها ضمن العمق الكتامي غير بعيد عن قسنطينة، في حين يرى حسين بوبيدي أن موضع سد جرمة الذي يتبع إلى ولاية قالمة هو أقرب المواضع تناسقا مع مسار الأحداث. انظر: **الداعيان الشيعيان: أبو سفيان و الحلواني – دراسة في النصوص ومجالات التأثير –**، مجلة المعالم، جمعية التاريخ والمعالم لولاية قالمة، العدد 18، 2015، ص 52

الأندلسي			47
بنو سكتان[1]	أبو عبد الله الداعي	"فتنازع أبا عبد الله كل واحد من الكتاميين ليذهب به إلى موضعه ... حتى صار أمرهم في ذلك إلى المشاحنة، ثمّ آل أمره إلى أن يخيّروه في حيث يجب أن يقصد ".	47
فرجون مولى والي ميلة	أبو عبد الله الداعي	" كان... ذا همة وكرم ... قال له موسى (الوالي) اذهب وجئني به (الداعي)... فخرج فرجون ... وحاسب نفسه فيه، وذلك أنه صار ضيفه إذ نزل بفندقه".	51
بنو سكتان	وفود الدعوة	" كانوا يقيمون ضيّافة من يأتيه ويرد عليه ... وينفقون في ذلك رغبة في الثواب ".	53
غشمان	الداعي وأتباعه	" كان الحسن بن هارون الغشمي . ... رجلا فيه ... عقل... وكَرمُ نفس، وله نعمة، وسأل ورغب . في الداعي . في الكون عنده، والنقلة إلى مكانه . تازروت [2]، ووعده بالذب عنه...بنفسه وأهله وماله ".	86
غشمان[3]	الداعي وأتباعه	قام الغشمانيون بما احتاج إليه المؤمنون، وقاسموهم أموالهم، وأحلوهم فيها محلهم، وأروهم ... ما سرهم ".	87
لهيصة[4]	أتباع الدعوة	" كويرت بن قيس اللهيصي ...قيل إنّه أنفق ماله كله في مواساة إخوانه، وإطعامهم وسد خللهم ...، ويضم إليه كلّ جريح ... إلى أن يبرأ ... فيصله بعد ذلك و يعطيه ".	130
الجدول 1: صور عن الكرم الكتامي أثناء الدعوة الإسماعيلية من خلال رسالة افتتاح الدعوة			

[1] ورد اسم هذا البطن عند ابن الأثير بصيغة " **بني سليان** "، وعند المقريزي تحت مسمى " **بني سليمان** ". انظر: **الكامل في التاريخ**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987، ج6، ص 451، **اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق: جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط2، 1996، ج1، ص 56، وتحسن الإشارة إلى وجود موضع في سفوح جبال الحلفاء المقابلة لإيكجان من جهة الشرق يحمل اسم " **بني سكفال** " الذي قد يكون تحريفا لبني سكتان.

[2] أسماها ابن الأثير " **ناصرون** "، ووردت عند المقريزي باسم " **تاصروت** "، وهي صيغة لفظ من أصل أمازيغي، يدلل به على "**الصخرة الكبيرة** "، وتكثر المواضع التي تأخذ هذه التسمية في المجال الكتامي، فإليه ينسب موضع جبلي يبعد بـ 7 كم عن مدينة عين الملوك بولاية ميلة، كما تسّمى به أحد المواضع القريبة من مدينة عين السبت، وموضع أخر يبعد عن مدينة بابور بـ 4 كم على الطريق إلى قرية أولاد حليمة، والحق إن كثرة هذه التسميات، وقرب مواضعها من مجالات النشاط الإسماعيلي تستدعي بإلحاح القيام بمسح طوبونيمي يستند إلى ما توفره النصوص التاريخية من معا لم من أجل ضبط دقيق لموضع تازروت. انظر: افتتاح الدعوة، ص 89 – 90، الكامل في التاريخ، ج6، ص 451، اتعاظ الحنفا، ج1، ص 58، دور كتامة، الإحالة 322، ص 152

[3] تنحدر من ولد ينطاسن أحد فروع غرسن بن كتام، وقد وردت في بعض المصادر باسم " **غسمان** " و"**غسان**" و"**عثمان**"، وبالاسم الأخير يعرف أحد المواضع الواقع إلى الشرق من مدينة عين السبت على الطريق نحو قرية غزالة، وأخر تسمّى به أحد الفروع المقيمة حول جبال الحلفاء على ما أشار إليه موسى لقبال، وخلف هذه الجبال من جهة الشرق يوجد موضع ثالث جنوب فرجيوة يعرف بـ " **بنات عثمان** ". انظر: افتتاح الدعوة، ص 87 – 88، العبر، ج 4، ص 48، دور كتامة، ص 109

[4] من نسل يناوة، أحد فروع غرسن بن كتام، وقد أشار إلى أنّ بطونها في زمن الدعوة الإسماعيلية توزعت بين نواحي ميلة وتازروت. انظر: افتتاح الدعوة، ص 96 وما بعدها، العبر، ج6، ص 196

- **التعليق:**

على الرغم من أنّ رسالة افتتاح الدعوة تندرج ضمن المؤلفات التاريخية ذات الصبغة المذهبية، إلاّ أنّها تكتنز بين نصوصها إشارات متنوعة عن ظاهرة الكرم في الشق الشرقي لبلاد المغرب خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، ولعل لذلك صلة بالصفة التي استتر دعاة الإسماعيلية خلفها لضمان ولوج سلس إلى المناطق التي حُدت لهم، حتى لا يثيروا انتباه العباسيين وحلفائهم بالمنطقة، فقد استطاع أبو عبد الله الداعي بفضل نبّاهته أن يفرض نفسه ضيفا مرغوبا فيه على الكتاميين الذين تنافسوا على استضافته في ديارهم، وهي المشاهد التي برع في تصويرها القاضي النعمان ضمن قالب منسجم مع وقائع مسار الحدث المؤرَخ له.

وعن رسالة افتتاح الدعوة نقل بقية المؤرخين أخبارهم عن مشاهد الكرم في البلاد الكتامية أثناء مرحلة النشاط الإسماعيلي، إلاّ أنّ أساليب نقولهم، ومستوياته، وطرق صياغتها اختلفت وتفاوتت من مصدر لآخر على أوجه ثلاثة، هي:

–**نقل شبه كلي:** ينطبق هذا الوصف على نصوص الكرم الكتامي التي وردت عند أحد أشهر دعاة الشيعة الإسماعيلية المعروف **بالداعي إدريس القرشي** (ت 872هـ/ 1467م)، الذي ضمّن مؤلفه **"عيون الأخبار"** نقولا كثيرة عن مؤلفات القاضي النعمان[1]، وعلى رأسها كتاب افتتاح الدعوة الذي لاحظنا أنّه أعاد سرد جميع نصوصه المتصلة بالظاهرة محل المعالجة بصورة شبه متطابقة[2].

–**نقل جزئي:** مال البعض الآخر ممن تناول مسألة الكرم الكتامي إلى إيراد بعض النصوص التي دونها القاضي النعمان في رسالته مع بعض التصرف في مضمونها، وفي اختيار المشاهد ومناسبتها، وهو ما نحاه **النويري**[3] الذي أشار إلى ذلك صراحة في صدر سوقه لأخبار رحلة الداعي إلى بلاد كتامة، و**ابن الأثير**[4] على الاختلاف بين الباحثين حول صبغة نقله عنه من طريق مباشر ، أو عبر ابن شداد الصنهاجي في كتابه الجمع والبيان[5].

في حين لم يُلق **ابن خلدون**[6] وتلميذه **المقريزي**[7] لمسألة الكرم الكتامي بالا إلاّ مرة واحدة، تعلقت باستضافة السماتيين للحجاج الكتاميين بعد عودتهم من الحج، بالرغم من توافق خبريهما مع مسار رواية القاضي النعمان بشأن دخول الداعي إلى المنطقة.

–**إعادة القولبة:** يختص هذا الأمر برواية **محمد بن يوسف الورّاق** (ت 363 هـ/ 973م) التي نقلها لنا **ابن عذارى المراكشي** (حي 712هـ/1312م)[8]، والحق إنّ هذا الصنف الثالث لا يرتبط بنقل مباشر لنصوص الكرم الكتامي عن القاضي النعمان، بقدر ما يتصل بمصدر هذه الرواية التي تؤرّخ لابتداء الدعوة الإسماعيلية في المنطقة، إذ أنّ مقابلتها برواية القاضي النعمان تجعلنا نستشف أنّها على

---

[1] الداعي إدريس، المصدر السابق، مقدمة التحقيق، ص 14

[2] دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1985، ص 86، 88، 90، 91، 97

[3] **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: نجيب فواز وحكمت فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004،ج28،ص 48

[4] الكامل في التاريخ، ج6، ص 451

[5] علاوة عمارة، **ابن شداد الصنهاجي جامع أخبار المغرب الوسيط**، مجلة التاريخ العربي، العدد 21، 2002، ص 89 – 90

[6] العبر، ج4، ص 42

[7] اتعاظ الحنفا، ج1، ص 56

[8] **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: ل. بروفنسال و ج. كولان، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983، ج1، ص 124

عكس المصادر الأخرى تتقاطع معها في رسمها العام، وسياقها التاريخي، لكنها نُسجت في قالب مغاير يوحي بأنّنا إزاء رواية ثانية، لاسيما وأنّها دوّنت لبني أمية ألد أعداء الفاطميين.

ولئن اتفقت هذه الرواية مع رواية القاضي النعمان في اتخاذ الداعي موسم الحج كمحطة انطلاق لمساره الدعوي، واستتاره تحت قناع الضيّافة حتى لا يُنتبه إليه، إلاّ أنّها تختلف معها في الميل إلى عفوية الدخول الإسماعيلي إلى المنطقة، وتأخّر وقوعه إلى ما بعد عودة الحجاج الكتاميين إلى مضاربهم، وفي ربط مستضيفي داعيتها بالخوارج النكارية[1]، كما أنّها اصطبغت في بعض أجزائها بطابع حكائي على ما نبّه إليه محمد الطالبي " **ومن الواضح جدا أنّ الحكاية التي دوّنها الوراق من نسج الخيال الشعبي المعادي للشيعة**"[2].

ومهما يكن من أمرٍ فإنّ الذي يسترعي الانتباه في نصوص القاضي النعمان المتعلّقة بظاهرة الكرم والضيّافة عند قبيلة كتامة، أنّها امتزجت بين طابعين سيكونان محور مساءلتنا فيما تبقى من أطوار هذه الدراسة، لأجل وضع مقاربة موضوعية تتناغم مع الإشكالية التي انبنت عليها، وهما:

- **الطابع الاجتماعي**: نقف من خلال مظانه على إشارات إلى مختلف الطقوس والأعراف المحلية التي أطّرت عادة إكرام الضيوف وإطعام المارّة عند الكتاميين، من مناسبات الضيّافة، وظروف الاستقبال...
- **الطابع السياسي**: يضطلع فيه المضيف زيادة على القيام بواجب الضيّافة المعتاد، بأعباء إضافية في خدمة ضيفه، كإجارته، والذب عنه وحمايته من خصومه إذا ما اعترضه الخطر ، أو كان محل متابعة منهم، ولنا في رسالة الافتتاح شواهد عدة على البلاء الكتامي الكبير في مدافعة خصوم ضيفهم أبي عبد الله الداعي[3].

3. جوانب من عوائد الضيّافة الكتامية :

لا ريب في أنّ سلوك الكرم ذو صلة وثيقة بالمجتمع الذي أنتج مشاهده، وأنّ صوره التي نقلتها لنا المصادر ما هي إلاّ انعكاس لذهنية جمعية اشترك أفرادها في رسم معالمه، واستمد أصوله وامتداده من مرجعيات تنوعت في منابتها، وفي مستويات إسهامها في نشر ثقافته، التي يؤكد ابن حوقل بأنّها سادت مناطق واسعة من بلاد المغرب، امتدت من " **سجلماسة إلى سوس، وأغمات، وفاس، إلى نواحي تاهرت، وإلى تنس، والمسيلة، وبسكرة، وطبنة، وباغاي، إلى أكربال، وأزفون، ونواحي بونة، إلى مدينة قسنطينة الهواء، وكتامة، وميلة، وسطيف** "[4].

ولم تكن عوائد هذه الظاهرة عند القبائل المغربية وليدة عصر ابن حوقل، بل لها من التأصّل والعراقة ما يمتد إلى مراحل أقدم، بشهادة عديد الإشارات التي نقلها لنا القاضي النعمان وهو يستعرض أخبار الكرم والضيّافة عند أهل المنطقة، مثلما نقرأه في جواب حجّاج كتامة عندما استفسرهم أبو عبد الله الداعي عن الطعام الذي أحضروه له حينما نزل عليهم في موسم الحج " **قالوا هذه سُنتنا في ضيفنا** "[5]، أو في تعليق القاضي النعمان على استضافة السماتيين لوفد الحجيج الكتاميين عند مروره ببلادهم " **على عادة ما يفعلونه بالأضياف الجماعة**

---

[1] المصدر نفسه، ج1، ص 125 – 127

[2] **الدولة الأغلبية . التاريخ السياسي**، تعريب: المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2،1995، الإحالة 1، ص 668

[3] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 54 ، 81 ، 86

[4] صورة الأرض، ج1، ص 93

[5] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 35

إذا حلوا بالقوم "[1]، وهي عبارات تنمّ عن تجارب اجتماعية متجذرة تحوّلت مع كثرة التمرّس عليها إلى عادة راسخة، حتى أضحت لهم أعراف وطقوس خاصّة بها، ولعِظم رمزيتها، وترسّخها في موروثهم لم يتخلوا عنها حتى في أسفارهم[2].

ويُدلّل تعدّد مواطن كتامة من " **نواحي بونة إلى مدينة قسنطينة الهواء، وكتامة، وميلة، وسطيف"**[3] التي أدرجها ابن حوقل ضمن أبرز مناطق انتشار هذه العادة، على أنّ الكتاميين ذاع صيتهم في إطعام المارّة وإكرام الضيفان، حتى صار هذا السلوك جزءا من شخصيتهم لا يبرحونه في حِلهم وترحالهم، ويرتبط في قيمته الرمزية بنشر قيم العطاء، والشهامة، والمروءة، والإجارة، إذْ بات في عرفهم خذلان اللائذ بهم من انقطاع طريقٍ، أو سلبٍ، أو طالبٍ للضيّافة، منقصة ومعرّة تحط من رجولة المقدم عليه بين قومه، ولا يلبث العار أنْ يلحق بكل قبيلته ويهز من هيبتها بين سائر القبائل[4]، وهي من دون شكّ المبادئ والقيم التي وقفت وراء تصلّب موقف بطون كتامة التي استضافت داعي الإسماعيلية في مضاربها تجاه خصومه، إذ ظلت مستميتة في الدفاع عنه، رافضة تسليمه، بداعي أنّ ذلك تعدٍ على أعرافها، ومنقصة لها بين قبائل المنطقة.

وقبل أن نسبر أغوار تجليات ظاهرة الكرم في المجال الكتامي، والتمظهرات الميدانية لبعض عوائدها وطقوسها زمن الدعوة الإسماعيلية، لا بأس أن نعرّج على أبرز عوامل فشوها بين ساكنته، ولعلّ أبرزها:

- **العامل الديني**: يندرج الكرم ضمن السلوكات المحمودة التي استحبها الشرع وحثّ عليها، مصداقا لقوله صلى الله عليه و سلم " **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ** "[5]، دعما لأواصر الأخوة بين المسلمين، وترسيخا لروح التكافل بينهم، ولعظيم شأن هذه المنقبة فقد وصف المولى عز وجل نفسه بها في قوله ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ** ﴾[6]،وهي إلى ذلك من الصفات التي تحلى بها الأنبياء والمرسلون، كما هو شأن إبراهيم الخليل عليه السلام الذي نزل عليه ملائكة الرحمان أضيافا ﴿ **فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ 26 فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ 27**﴾[7].
- **العامل العرفي**: أنّ طغيان الطابع الريفي– البدوي على الحياة العامّة في معظم المجالات الكتامية، وتنافس بطونها على اكتساب محامد الأخلاق وقيم الشهامة، والنجدة، والكرم، والإيثار، التي كانت ترى فيها كمال شخصيتها، وعنوان شرفها على سائر القبائل، زاد من مؤشر الحضور الميداني لهذه الظاهرة، ويُبرّر في الآن نفسه انتشارها الواسع في كامل المنطقة.

---

[1] المصدر نفسه، ص 40

[2] المصدر نفسه، ص 34

[3] ابن حوقل ، المصدر السابق ، ج1، ص 93

[4] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 54 ، 82 ، 93 ، النويري، المصدر السابق ، ج28، ص 51، الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 91 ، 95

[5] ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تحقيق: عبد القادر شيبة الحمد، طبعة الأمير سلطان بن عبد العزيز، الرياض، ط1، 2000، كتاب الأدب: حديث رقم 6019، ج10، ص 460

[6] سورة العلق، الآية 03 .

[7] سورة الذاريات، الآية 26 – 27 .

- **العامل النفسي**: يتصل هذا العامل بالأثر النفسي لهذه الفضيلة، التي تجعل المداوم عليها لاسيما بالنسبة إلى أولئك الذي يبادرون إليها عن طيب خاطر يشعرون بالارتياح والسعادة، وهو ما أثبتته بعض الدراسات الحقلية المعاصرة، فقد ورد في نتائج إحداها أنّ سلوك الكرم عند المرء تنجم عنه استثارة عصبية لمنطقة الدماغ المسؤولة عن السعادة[1].
- **العامل البيئي والجغرافي**: إنّ شساعة مضارب كتامة، ووقوع بعض مواطنها على مشارف الطرق التجارية التي كانت تمر عبر أراضيها[2]، جعلها ملجأ لكل منقطع أو مسلوب أو عابر سبيل، لاسيما في ظل طول بعض المسالك ووعورة دروبها، وقساوة مناخها، زيادة على ضعف قدرة المسافرين على حفظ مؤنهم مدة طويلة، ما يجعلهم في حاجة إلى المساعدة والدعم[3].
- **العامل المادي**: الثراء المادي لكتاميي هذه المرحلة على ما أقرّوا به للداعي أثناء رحلته إلى بلادهم، وبخاصة من المواد والمنتجات التي كانت تحضّر منها أطباق موائد إكرام الضيوف كالأغنام والأبقار[4]، والحبوب[5] ، دون أن نغفل عن الفاكهة التي تكثر بها في ظل خصوبة خصوبة التربة، ووفرة المياه[6].

والحق إنّ السيّاق العام الذي اندرجت ضمنه إشارات أخبار الكرم والضيّافة عند بطون كتامة خلال هذه الفترة، جعلها مقتضبة في مادتها، عامّة في خبرها، ولم تَجُدْ علينا بتفاصيل دقيقة نستطيع من خلالها أن نستوفي الملمح العام الذي سادت به هذه العادة في أوساط هذا القبيل، إلاّ أنّ ذلك لا يمنع من التعريج على بعض الطقوس والأعراف المحلية التي اقترنت بها، كما تُظهره المحطات الموالية:

- **مناسبة الضيّافة**: تشير المصادر إلى أنّ الضيّافة في المجال الكتامي امتزجت في التئام مائدتها بين مبادرة الكتامي إلى المار به بأن ينزل عنده ليكرم وفادته[7]، وبين أن يقصد الضيف أهل المنطقة طلبا للضيّافة[8].

وقد اختلفت مناسبات احتضانهم للضيوف، فزيادة على الحالات المألوفة المقترنة بصلة الأرحام[9] التي تندرج ضمن تعزيز الروابط الاجتماعية، إلى جانب إكرام المارة وعابري السبيل[10]، نقف على مناسبات أخرى اكتسبت نوعا من الخصوصية، كإكرام ركب الحجيج

---

[1] Soyong,Q, **A neural link between generosity and happiness**, Nature Communications, 2017, p 1, 6

[2] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص37، ابن حوقل، المصدر السابق، ج1، ص 85 – 87، البكري أبو عبيد ، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت، ص 54 ، 63 – 64

[3] رضا بن النية، **صنهاجة المغرب الأوسط – دراسة اجتماعية –**، دار توكل، سطيف، ط1، 2016، ص 213

[4] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 109، 122، ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 128

[5] ابن حوقل، المصدر السابق، ج1، ص 76، 87، الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص 266 – 268

[6] اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب، **كتاب البلدان**، مطبع بريل، ليدن، 1860، ص 140، مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1985، ص 128، 166، الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص 265، 269

[7] ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 125، 127

[8] الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص 269، الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 97

[9] ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 128

[10] ابن حوقل، المصدر السابق، ج1، ص 93، الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص 269

الذي أشار البعض[1] إلى أنّه كان يمرّ عبر بلادهم بما يكتسيه من قداسة ورمزية، أو تلك التي اصطبغت بطابع سياسي على غرار ما فعله بطنا بني سكتان وغشمان مع أتباع أبي عبد الله الداعي[2].

-**فئات الضيفان:** نميّز من خلال النصوص التي بحوزتنا أنّ نزلاء الضيّافة الكتامية كانوا على ثلاثة أصناف، هي:

- **نزلاء محليون:** من داخل القبيلة، وعادة ما يكون نزولهم قصيرا ومناسباتيا[3].
- **نزلاء مؤقتون:** من خارج القبيلة،من:المنقطعين، والحجّاج، وعابري السبيل[4].
- **نزلاء دائمون:** ممن اختاروا الإقامة الدائمة في المجال الكتامي، ويتسمى هؤلاء بحسب الأعراف المحلية باسم البيت أو البطن الذي اختار الضيف الإقامة بمضاربه[5]، وبهذا الوصف يكون أبو عبد الله الداعي قد تسمى بـ "**ضيف بني سكتان** " في إيكجان، ثمّ بـ " **ضيف غشمان** " في تازروت.

-**أشكال الضيّافة:** انتشر سلوك الكرم وإطعام المارة عند الكتاميين على صورتين، فقد يكون نزول هؤلاء **فرادى** وتقع حينها مسؤولية الضيّافة على عاتق النازل عنده[6]، وله الخيّار في توسيع مجلس الضيّافة إلى كبار رجالات بيته أو حتى بطنه بحسب هوية الضيف، ومناسبة ومناسبة النزول.

أمّا إنْ كان **النزول جماعيا**، فجردت العادة أن يتكفل كل بيت من القبيلة بفرد أو جماعة بحسب أعداد النازلين عليهم[7] ، وإذا ما اختصموا في ضيّافة أحدهم مالوا إلى الاقتراع، فمن وقع عليه السهم نال شرف استضافته[8]، وقد يلجؤن إلى طريقة أخرى تجنّبهم التخاصم، يُخيّر فيها الضيف في البيت أو البطن الذي يؤْثِر النزول عنده، كما حدث مع أبي عبد الله الداعي عندما تنازع الكتاميون حول من يحظى بكرم ضيّافته[9].

-**مجالس الضيّافة:** لم يمتلك الكتاميون أمام بساطة مساكنهم مجلسا خاصا باستقبال ضيفانهم، وإنّما كانت تُهيأ لهم فضاءات الاستقبال من تنظيف وترتيب وتعطير عند حلول الضيف فقط، فيما خلا شيخ القبيلة الذي كان يحوز مكانا مخصّصا لذلك باعتباره رئيسها وممثلها[10]، زيادة على كثرة النازلين عليه من داخل مضارب بطونها أو من خارجها.

وقد تضطر بعض التطورات السياسية التي تشهدها مجالات القبيلة رؤوسها إلى اتخاذ مجالس دائمة لاستقبال الضيوف وإكرامهم، كما حدث مع بني سكتان في إيوائهم للوافدين على الداعي بإيكجان[1]، وغشمان بعد هجرته إلى مضاربها[2].

---

[1] عبد المنعم ماجد، **ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط4، 1994، ص 79، محمد الطالبي، المرجع السابق، الإحالة 1، ص 681، موسى لقبال، المرجع السابق، ص 153

[2] ابن الأثير، المصدر السابق، ج6، ص451 – 452 ، النويري، المصدر السابق، ج28، ص 48، 52

[3] ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 128

[4] ابن حوقل، المصدر السابق، ج1 ، ص 93 ، الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص 269

[5] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 103

[6] ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 128

[7] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 40 – 41

[8] النويري، المصدر السابق، ج28، ص 48، المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص 55

[9] ابن الأثير، المصدر السابق، ج6، ص 450 – 451، الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 88

[10] ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 127، الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 97

–**مدة الضيّافة:** اختلفت مدة استضافة الكتاميين للنازلين عليهم من الضيوف بحسب دواعي حلول هؤلاء عليهم، فتلك التي اقترنت بمناسبات الزيارات العائلية عادة ما كانت مقتضبة، ولا تتعدى في الغالب اليوم الواحد[3]، ولا تزيد عن حدها الشرعي المقدر بثلاثة أيام عند المارة وعابري السبيل، وقد تتحوّل الضيّافة إلى إقامة دائمة إذا ما آثر الضيف النزول في جوار القوم وحماهم، على غرار إقامة الداعي[4] وبعض المؤمنين الذي وفدوا عليه بإيكجان عند بني سكتان[5].

–**طعام الضيّافة:** لا جرم في أنّ مستوى ما تُزيّن به موائد الطعام في مجالس الضيّافة من ألوان الأطعمة والمشروبات يتصل في قيمته ورمزيته بجملة محدّدات، إذ تتنوع أطباقها، وتختلف مشروباتها، وتُحّف بشتى أصناف الفاكهة بحسب مناسبة الضيّافة، ومنزلة الضيف ومقامه، علاوة على القدرة المادية للمُضيف.

وإلى جانب كون الطعام في مناسبات الضيّافة هو آلية لتعبير المضيف عن غبطته وسروره بمن نزل عليه من الضيفان، فإنّه من وجه آخر يستمد قيمته زيادة على كونه قوتا للجسد، من الغايات التي تُتوخى من بذله والتوسّع فيه، من تعزيز الصلات بين الأفراد والجماعات، ونشر قيم النخوة والنبل والنجدة والتضامن.

وعلى ضوء هذا المعطى دأب الكتاميون إذا ما نزل عليهم الضيف إلى الإسراع بنحر شاة على شرفه[6]، وقد يستدعي الأمر في بعض المناسبات أن تكون الذبيحة من البقر[7]، لإعداد طعام يليق بمقامه، وعلى الرغم من أنّ المصادر لم تفصّل في أصناف الطعام التي كانت تقدّم للضيوف، إلاّ أنّها كانت من دون شكّ تحضر من المواد الأولية التي كانت تجود بها أرضهم، من شعير وحنطة وخضروات، وتكون أطباقها الرئيسة من اللحم المطهوّ والمشوي، مع تطعيمها بالمشروبات من مشتقات الحليب والفواكه[8].

ولئن مالت كتامة إلى إكرام الضيف بأكثر هذه الأطعمة انتشاء وقيمة، إلاّ أنّها لم تخرج في مجملها عمّا يتماهى مع العوائد القبلية في كامل بلاد المغرب في الأكل والشرب، والتي تنحو إلى الكفاف في المعيشة، ولا ترقى إلى مستوى الترف والبذخ الذي يطبع موائد الحواضر[9].

ولما كان نزول بعض الأضياف لاسيما الغرباء منهم، أو بعض معارف القبيلة الخارجيين، من ذوي الرفعة والمكانة، فإنّ الأعراف المحلية عَدّت هؤلاء النزلاء ضيوفا على القبيلة كلها[1]، واقتضت عادتهم في مثل هذه المناسبات أن يوسّع مجلس الضيّافة ليضمّ كبار أفراد بيت المستضيف، وقد يمتد الأمر في بعض الحالات إلى كبار أعيان البطن ككل[2].

---

[1] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 47 – 48

[2] النويري، المصدر السابق، ج28، ص 52

[3] ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 128

[4] النويري، المصدر السابق، ج28، ص 48، المقريزي، المصدر السابق، ص 56

[5] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 53

[6] المصدر نفسه، ص 35

[7] ابن عذاري ، المصدر السابق، ج1، ص 128

[8] حول أهم المنتجات الزراعية والحيوانية في بلاد كتامة،انظر: صورة الأرض، ج1، ص 75 – 76، المغرب، ص 55، 83، الاستبصار، ص 127 – 128، 166، نزهة المشتاق، ج1، ص 265 – 269

[9] سعيد بنحمادة، **الأغذية والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط – مدخل لدراسة العوائد و القيم –**، ضمن كتاب: **النظام الغذائي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط**، منشورات الزمن، الرباط، 2016، ص 88

ومما تحسن الإشارة إليه في هذا المقام أنّ مائدة إطعام الضيوف في حالات الضيّافة الطويلة المدة، وكثرة النزلاء، لا ترقى في قيمتها وتنوع أطباقها إلى مستوى مائدة الصنف الأوّل، ولئن كانت إقامة أبي عبد الله الداعي عند بني سكتان لم تكلفهم شيئا كثيرا، على اعتبار أنّه كان ميّالا إلى الزهد والتقشف، فإن كثرة مريديه والوافدين عليه بإيكجان جعل بني سكتان يفردون له " **مجلسا للسماع، وكانوا يقيمون ضيافة من يأتيه ويرد عليه، وينفقون في ذلك رغبة في الثواب، وتقربّا إلى الله عز وجل بفعل الخير** "[3]، وحتى بعد انتقاله إلى تازروت فإن أهل غشمان أكرموا نزله رفقة من صاحبه من الأتباع وأحسنوا وفادتهم[4].

4. كتامة وعادة بذل الأولاد للضيفان: قراءة في مصدر الخبر ومضمونه

أشارت بعض الروايات إلى أنّ الكرم الكتامي قد بلغ في بعض مشاهده إلى مرتبة الإيثار والمبالغة في أداء حق الضيّافة، حتى وصل الأمر بأقوام منهم إلى بذل أنفسهم وأولادهم لمن ينزل عليهم من الضيوف، ولا يجدون في ذلك منقصة، ولا يأنف من ذلك الوضيع والشريف، **فما مدى صدق هذه الروايات ؟**

كانت كتب الرحلة أكثر أصناف المصادر عناية بنقل أخبار عادة بذل الكتاميين أنفسهم وأولادهم لضيفوهم، وعلى الرغم من وقوفنا على خمسة نصوص منها، إلاّ أنّ سبر أغوار مضامينها يوحي بأنّ مصدرها واحد هو الرحّالة العراقي ابن حوقل النصيبي (ت 367هـ/ 977م)، ولئن كان ياقوت الحموي (ت 626 هـ/ 1228 م)[5] والقزويني (ت 682هـ/ 1283م)[6] قد أشارا إلى نقلهما المباشر عنه، فإنّ الشريف الإدريسي (ت 560هـ/ 1164م) لم يلمّح إلى ذلك، غير أنّ تأكيده في صدر نزهته[7] على معرفته بكتاب صورة الأرض، إلى جانب بنية مضمون خبره الذي يتقاطع مع ما أورده ابن حوقل في عدة جزئيات، كمحاربة الحكّام لهم عليها، وعدم استحسان أهل سطيف لها، وأنّهم أقل أهل المنطقة إقداما عليها، يزيد من صلة ارتباطهما، ويرجّح أنّ الإدريسي قد نقل عن ابن حوقل مع شيء من التصرّف[8]، والوصف ذاته ينطبق على خبر الحميري (ت 900 هـ/ 1494م)[9] الذي لخّصه عن نزهة الأوّل ، ومن ثمّ فنحن إزاء نصوص تنهل من منبع واحد، وهو ما يجعله مدعاة للتشكّيك وبحاجة إلى ما يدعمه، خاصة وأنّ التدقيق في مضمونه الذي ورد في موضعين منفصلين يجعلنا أمام روايتين متناقضتين، هما:

---

[1] الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 95

[2] ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 128

[3] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 53

[4] المصدر نفس ، ص 87

[5] أبو عبد الله بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، 1977، ج1، ص 369

[6] أثار البلاد، ص 164

[7] الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص5

[8] المصدر نفسه، ج1، ص 269 – 270

[9] محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص 71 – 72

-**الرواية الأولى**: مفادها أنّ هذه العادة شملت بعض المجالات الكتامية، وأنّ أبا عبد الله الداعي حاربهم عليها دون أن يقوى على ردهم عنها، وقد نقلها لنا ابن حوقل **مشافهة** عن شخص يدعى أبا علي بن أبي سعيد[1]: فمن **يكون هذا الشخص ؟، وما مدى مصداقيته ؟، وما طبيعة علاقته بالكتاميين ؟، وهل هو شاهد عيان أم ناقل لحكاية ؟**.

-**الرواية الثانية**: تُناقض الرواية الأولى في خبرها، وقد أوردها ابن حوقل من موقع الزائر والمشاهد عندما علّق على انتشار هذه الظاهرة في المجال ذاته قائلا " **وليس نرى بكتامة التي بسطيف، ولا بغيرها، شيئا من هذا الأمر ، ولا يجيزونه ولا يستحسنون ذكره** "[2].

وعلى أهمية هذه الشهادة إلاّ أنّنا نستغرب إهمال الإشارة إليها من قبل ياقوت الحموي[3] والقزويني[4] اللّذين اكتفيا بتبني الرواية الأولى، وأظهرا تحاملا كبيرا على البربر في معرض تعريفهما بهم، وانفرد الأوّل عن بقية المصادر بالإشارة إلى أنّ ابن حزم الأندلسي (ت 465هـ/ 1063م) قد أكّد شيوع هذه العادة بين البربر في كتابه الموسوم بـ " **فضائح البربر** "[5]، غير أنّ عدم زيارته للمنطقة، ومناسبة تأليفه لهذا الكتاب الذي جاء في ذم البربر في أعقاب تخريبهم لمدينة قرطبة سنة 403هـ / 1012م[6]، يجعلنا نرجّح بأنّ صاحبه مال إلى جمع ما أتيح له من مثالب هؤلاء من مختلف المصادر ومن ضمنها هذا الخبر، وينمّ اكتفاء ياقوت الحموي[7] بالقول أنّ ابن حزم قد أكّد فيه ما قاله ابن حوقل دون أن يورد إضافات على نصه الذي نقله لنا في معجمه، بأن ابن حزم قد استسقى هذه المعلومة منه.

أمّا الشريف الإدريسي المغربي الأصل فعلى الرغم من أنّه لمح إلى بعض أجزاء الرواية الثانية، إلاّ أنّه لم ينفِ هذه العادة عن كتامة سطيف تماما وإنّما جعلها أقل انتشارا، وانفرد عن النّصين الآخرين بجعل جهات القل والمناطق الجبلية الممتدة إلى قسنطينة أكثر إقداما عليها[8].

وبناءً على هذه المعطيات نجد أنفسنا نطمئن إلى مضمون الرواية الثانية باعتبار أنّ مدوّنها شاهد عيان عليها، وشتان بين من عاين ومن حُكي له، وحتى وإنْ كان لهذا الأمر بعض الشواهد الميدانية فهو من قبيل المنكرات التي تحدث في أوساط مختلف القبائل والشعوب، ولا يرقى البتة لأنْ يصبح عادة توصف بها أقوام بأكملها من الكتاميين، ومما يعزّز هذا الطرح:

-أنّ هذه العادة الذميمة تأباها الفطرة الإنسانية، فما بالك بأقوام جعلت من محامید الأخلاق عنوانا لشرفها، ومحط تفاخر وتنافس بين فروعها، وزادها تهذيبا ومتانة اعتناقها للدين الإسلامي الذي ينبذ هذه السلوكات ويحرّمها، بل إنّه عدها من الكبائر التي تجب محاربتها.

ومما يُنكر على هذه الرواية حتى ولو سلمنا بوجود بعض الشواهد على وقوعها أنّها تميل إلى التعميم، إذ جعلت من التبذل الأخلاقي صفةً للجميع ، فالضيف في تصوّرها شاذ، والمستضيف متبذل، والأغرب أن يحدث ذلك بمباركة فقهاء المنطقة وأهل الفضل فيها الذين

---

[1] ابن حوقل، المصدر السابق، ج1، ص 95

[2] المصدر نفسه، ج1، ص 96

[3] ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 369

[4] القزويني، المصدر السابق، ص 164

[5] كما أشار إلى أنّه نبّه إلى تفشي هذه العادة بين الكتاميين في تأليف له اسمه " **أخبار الملل وقصص أهل النحل في مقالات أهل الإسلام** "، الذي يندرج في عداد التراث المفقود. انظر: معجم البلدان، ج1، ص 369

[6] حول فتنة قرطبة سنة 403 هـ/ 1012م، راجع: ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 112 وما بعدها، المقري محمد بن أحمد التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، دار صادر، بيروت، د.ت، ج1، ص 427 – 430

[7] معجم البلدان، ج1، ص 369

[8] الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص 270

لم يحرّكوا ساكنا، فالأولى هنا إذا أن نتحدث عن وكر للشذوذ والتبذل، لأن ذيوع الأمر بهذه الشاكلة سيجعل من الشواذ وضعاف النفوس يتنافسون على طلب ضيّافة أهل البلد، وهو ما لم يُسمع بمثله قطُّ في أيّ من مجتمعات المنطقة.

–أنّ الأمر قد يرتبط بإشاعات روّجت عن قبيلة كتامة بدافع الحسد والغيرة التي تنتشر كثيرا بين القبائل الريفية والبدوية، نتيجة للسمعة الطيبة التي ذاعت عنها، وتطاير أخبار فضائلها في إكرام الضيوف، وإطعام المارة، سواء أكان مصدرها هو القبائل المجاورة لها، أم بطون من داخلها لاسيما في فترة الدعوة الإسماعيلية التي نشط فيها الكرم الكتامي وبلغ ذروته، إذ قد يتصل الأمر بإحدى أساليب الدعاية والتحريض والضغط على القبائل الكتامية التي آوت الداعي ورفضت تسليم ضيفها، رغم المناورات العديدة لخصومه لتحصيله منها.

–لا يُستبعد من وجه أخر بأنّ الأمر قد يكون له علاقة بوقوع فعلي لبعض الحالات، وأمام شناعة الجُرم وقبحه، استعظمه الناس واستنكروه، ولما كانت الذهنية القبلية والأعراف المحلية تأبى مثل هذه السلوكات، حتى وإنْ ارتبط الخطأ بتجاوزات فردية وبحالات معزولة، فإنّها عادة ما تُلقي باللوم، وتُعمّم المعرّة والنقص على كامل القبيل الذي ينحدر منه الجاني[1].

– عدم إشارة القاضي النعمان إلى هذه العادة على طول مدة إقامة أبي عبد الله الداعي بين الكتاميين، خاصة وأنّه لم يتردد في الإشارة إلى بعض الآفات الاجتماعية التي كانت منتشرة بينهم في مواضع عدة من مؤلفه، من مثل السرقة، والخيانة، وقلة الأمانة، **فما الذي يُثنيه إذًا عن التنبيه إليها ؟**[2].

كما أنّ نصوص رسالة افتتاح الدعوة التي ركزت على مستوى الصلاح الذي آل إليه مجتمع الدعوة في بلد كتامة حتى " **لم يرَ الناس ولا انتهى إليهم أنّ قوما كانوا من صلاح الحال والاستقامة على مثل ما كان عليه أصحاب أبي عبد الله** "[3]، يفنّد الرأي القائل بأنّ أبا عبد الله الداعي جَهد في ثنيهم عن هذه العادة: **أيصلح المجتمع ويستقيم في كلّ شيء إلاّ في هذه؟**[4]، و هو ما تدعمه رواية ابن حوقل في صورتها الثانية[5].

–أنّ فشو هذه العادة بين بعض فروع كتامة على الصورة المتبذلة التي نقلتها لنا المصادر التي نبّهت إليها، هي من الشناعة والقُبح الذي لا يفوّت الناقل لأخبار المنطقة التلميح إليه، ومع ذلك فإننا لا نلمح لها ذكرا عند اليعقوبي الذي زار المنطقة قبل ابن حوقل وكتب عن كتامة، ولا عند غيره من أمثال المقدسي المعاصر لابن حوقل، أو البكري الكثير التدقيق في مثل هذه الأمور، وغيرهم ممن زار المنطقة أو كتب عن هذا القبيل وبعض عوائده كالزُهري والعبدري وابن خلدون والوزان وغيرهم[6].

–وقد مال محمد الطالبي[7] إلى ربط انتشار هذه العادة بين الكتاميين بتقاليد قديمة قد تمتد في أصولها إلى مرحلة ما قبل التاريخ، وجعلها من من ضمن قوانين قري الضيف، إلاّ أنّه بنى رأيه على الافتراض، وعلى بعض الدراسات الإستشراقية المعاصرة[8] البعيدة بعدة قرون عن فترة

---

[1] موسى لقبال ، المرجع السابق، ص 105

[2] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 119 – 121

[3] المصدر نفسه، ص 122، انظر أيضا: اليماني، المصدر السابق، ص 117، الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 94

[4] الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص 270، القزويني، المصدر السابق، ص 164

[5] صورة الأرض، ج1، ص 96

[6] موسى لقبال، المرجع السابق، ص 104

[7] الدولة الأغلبية، ص / 677، الإحالة 1، ص 678

[8] منها على سبيل المثال:

الدراسة، دون الاستناد إلى أصل مصدري ينطلق منه لتوثيق هذه الإشارات، وعلى افتراض صحتها فالأصل أن تسري هذه الأعراف على سائر قبائل المنطقة، **أليس ربطها بقبيل بعينه يستدعي الاستغراب؟**، لاسيما إذا ربطنا فترة ترويجها بمرحلة كثُر فيها أعداؤه، لأنه احتضن دعاةً عُدوا في نظر الكثيرين مارقين وخارجين عن الدين .

وعلى الرغم من أنّ الطالبي اعتمد في مؤلفه دولة الأغالبة أسلوبا تحليليا متميّزا، إلاّ أنّه غاب عنه في مناقشة هذه المسألة، وسلّم مباشرة بصحة مضمون نص ابن حوقل، ودعّمه بنص الإدريسي، وراح يبحث له عن مبرّر، رغم ما تحمله هذه النصوص من تناقضات كما تمت الإشارة إليه، أمّا تحجّجه بأنّ **"لكتامة حبّا متساويا للإسلام وممثليه ولعاداتهم القديمة"** [1]، وقلة اهتمام الرحالة والمؤرخين بقضايا المجتمع وعدم شعور بعضهم بتناقضاته[2]، فلها ما يجيب عنها فيما سُقناه عنها في النقاط السابقة التي ناقشنا فيها هذه المسألة.

وأمّا افتراض نسبْ الإقلاع عن هذه العادة إلى جهود الموحدين وخلفائهم من الحفصيين[3] فيحتاج إلى تأمّل طويل، لأنّه من الأولى أن نقرن هذا الأمر بأبي عبد الله الداعي الذي تغلغل إلى دواخل بلد كتامة، وبث فيهم دعوته، وحسُنت بفضل جهوده سيرتهم، لا بالأوائل الذين اقتصر جلّ اهتمامهم بالمنطقة على ضمان ولائها السياسي بالدرجة الأولى .

والخلاصة أنّ الرواية التي نقلت لنا خبر عادة بذل الكتاميين أنفسهم وأولادهم لمن ينزل عليهم من الضيفان يعتريها التناقض، وتفتقر إلى سند مصدري قوي البيان يعضد ما ساقته لنا، وأنّ ارتباطها في بعض أجزائها بالدعوة الإسماعيلية في المنطقة، يجعلنا نرجّح بأنّها أقرب إلى الإشاعة ضمن حملة الدعاية الواسعة التي شنّها خصوم أبي عبد الله الداعي على بطون كتامة التي آوته، حتى يتخلوا عن ضيّافته ويتخلّصوا منه بحجة أنّه جلب لهم المعرّة والنقصان.

5. ضيّافة كتامة لداعي الإسماعيلية وتداعياتها على المنطقة:

على الرغم من تأكيد العديد من المصادر أنّ نفوذ أبي عبد الله الداعي إلى بلد كتامة كان بتدبير مسبق[4]، فإنّ النّصوص التي أرّخت لمسار رحلته إليها، نُسجت رواياتها في قالب يوحي بعفويتها، ولعل ذلك يتصل بالأسلوب الذي انتهجه الداعي في البلوغ إلى الموضع الذي حُدّ له، إذ حرص على إحاطة نشاطه بالسرية والكتمان، واختار أن يستتر وراء قناع الضيّافة حتى لا يلفت الأنظار إليه، فكانت أولى خطواته لتنفيذ مخطّطه أنْ يفتّش في وفود موسم الحج عن حجّاج البلد الذي سيقصد إليه، فنزل عليهم، وطفق يتوسّع في شرح ظاهر علوم آل البيت بينهم، ويشيد بمآثر أئمتهم، حتى استطاع بفضل حُسن بسطه، وحلاوة كلامه أن يستدرجهم إليه، وبلغ مراده بأنْ ألحّوا على ضيّافته رغبة في مزيد الاستفادة من علمه[5].

A. Hanoteau et A. Letourneux **, la Kabylie et les coutumes kabyles,** imprimerie nationale, Paris, 2 édition, 1893, p 215 - 216

[1] محمد الطالبي، المرجع السابق، ص 678

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] المرجع نفسه، الإحالة 1، ص 678

[4] حول طبيعة النفوذ الإسماعيلي إلى بلد كتامة بين العفوية والتدبير المسبق، انظر: الافتتاح، ص 31، سيرة الحاجب جعفر، ص 122، الاستبصار،ص 203، الكامل، ج6، ص 450، البيان، ج1، ص 124، نهاية الأرب، ج28، ص47، العبر، ج4، ص 41، الاتعاظ، ج1، ص 55

[5] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 35

وبعد أن ضمن الداعي الضيّافة المؤقتة في كنف وفد الحجّاج الكتاميين ومرافقتهم حتى مصر، بدأ يخطّط للمرحلة الموالية، وهي تمديد فترة ضيّافته حتى يبلغ المحل الذي يرمي إليه، وأمام ما لمحه على مرافقيه من شغف بالعلم، وتوقيرهم لأهله، اختار أن يداهنهم من هذا الباب، بأنْ أظهر لهم أن سبب سفره هو طلب التعليم، ولم يشكّ في أنهم سيعرضون عليه مرافقتهم إلى بلادهم لهذا الغرض، فصدق حدسه، وألحّوا عليه، ووعدوه بجزيل العطاء، و بعد أن أبدى بعض التردّد أجابهم إلى مطلبهم، فتحقق بذلك مراده، وظفر بضيّافة دائمة لدى الوفد الكتامي في بلده[1].

وقد عامل الحجّاج الكتاميون الداعي الإسماعيلي طوال مسار عودتهم إلى موطنهم كضيف فوق العادة، حيث كانوا يعملون على خدمته وقضاء حوائجه، وأظهروا له من الغبطة والسرور ما أثلج صدره، ولعِظم قدره بينهم اختلفوا عندما وصلوا إلى مشارف بلدهم حول من يحظى بشرف استضافته، ثمّ اهتدوا إلى حل تخييره بشأن الموضع الذي تطيب نفسه النزول فيه، فاختار بعد أن سألهم عن موطن فج الأخيار الإقامة عند بني سكتان، وحتى يسترضي باقي طالبي ضيّافته، ويحرص على عدم انقسامهم وعدهم بأنْ يزورهم دوريا في مضاربهم[2]، وبذلك تبدأ مرحلة جديدة في ضيّافة كتامة الدائمة لأبي عبد الله الداعي بمضاربها.

استغل الداعي فترة ضيّافته الأولى ببلد كتامة في التعليم وبث فضائل آل البيت ومناقب أئمتهم بين الكتاميين، وما لبث أنْ ذاع صيته، وتطايرت أخباره، ووصله الكتاميون من الأقاصي[3]، ولم تقتصر ضيّافة بني سكتان في هذه المرحلة على أبي عبد الله الداعي فحسب، وإنما تعدى جودهم وكرمهم إلى استقبال ضيوف ضيفهم من الجموع القاصدين له من المناطق المجاورة، وأقاموا لأجل ذلك مجالس ضيّافة دائمة بذلوا فيها أموالا عظيمة في إكرام الوفود النازلة عليهم[4].

بيد أنّ ضيّافة بني سكتان ومن شايعهم من الكتاميين لأبي عبد الله الداعي ما لبثت أنْ تحوّلت إلى محور سجال عمّت انعكاساته المنطقة كلها، ذلك أنّ التنامي المطرد لمنزلته فيها قد أوغر صدور بعض شيوخ القبائل وأمراء الحواضر المجاورة عليه، وحرّكتهم المصالح والخوف على مناصبهم من أجل الإسراع إلى احتواء الوضع قبل أن يستفحل أمره[5]، وأمام رفض مستضيفيه تسليمه، أخذت ضيّافة الأواخر له طابعا سياسيا صرفا، وألقت على محتضنيه من الكتاميين بحسب ما تقتضيه أعرافهم القبلية، زيادة على إيوائه والإنفاق عليه، أعباء جديدة تمثلت في الذب عنه وحمايته، وإلاّ لحقت بهم المعرة والنقصان، وبذلك امتزجت مظاهر الكرم بالإجارة في إيواء بني سكتان وأحلافهم لضيفهم الإسماعيلي.

ومنذئذ بدأ خصوم الداعي يتآمرون عليه، وبادروا أوّل الأمر إلى مراودة بطون كتامة الحاضنة له عن ضيفها، غير أنّ جس نبضها أظهر معارضة شرسة لفكرة تسليمه ليس من قبل مستضيفيه فحسب، بل إنّ الفروع الأخرى من كتامة التي لم تنخرط بعدُ في دعوته ، رفضت التعاون معهم لسببين اثنين، أحدهما ينبع مما ترسّخ في ذهنيتهم القبلية وأعرافهم المحلية، بأنّ التخلي عن الضيف أو إخراجه من حوز

[1] ابن الأثير ، المصدر السابق، ج6، ص 450، النويري، المصدر السابق، ج1، ص 47 – 48

[2] الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 88

[3] النويري، المصدر السابق، ج28 ، ص 47

[4] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 53

[5] النويري، المصدر السابق، ج28، ص 50 ، الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 94

القبيلة تحت أيّ ظرف كان هو منقصة ومعرة تلحق بجميع بطون القبيل المقدم على ذلك من دون استثناء، والأخر ينطلق من زاوية القراءة المتبصّرة لتداعيات الانخراط في هذا المخطط الذي يفضي من دون شك إلى الانقسام بين فروع كتامة، وإلى إثارة فتن لا تنتهي بينها[1].

وحتى فرجون خادم والي ميلة موسى بن العباس أبى أن يسلم أبا عبد الله الداعي عندما علم الوالي بنزوله في الفندق الذي يمتلكه، واستخدم الحيلة في صرفه منه قبل أن تطاله أيدي الجند، وبرّر موقفه ذاك بأنّ الداعي حين نزل بفندقه صار ضيفا له ومن واجبه الذب عنه، وأنّ في خذله مذمة ومعرة[2].

ولئن كان هذا المشهد يدلّل على أنّ الكرم والضيّافة لم يقتصر على الأرياف الكتامية بل امتدت عوائده حتى إلى حواضر البلد، فإنّه ينمّ من جانب أخر عن عمق الترسّخ القِيمي لسلوك الكرم لدى الساكنة، واتصاله في بُعده الرمزي بقيم ومبادئ متأصّلة من مثل النخوة، والمروءة، والنجدة، والشهامة، والشجاعة.

وأمام تصلّب موقف كتامة تحولت ضيّافتها لأبي عبد الله الداعي وإجارتها له إلى محط تجاذب سياسي حاد بين أنصار الداعي والمشروع الإسماعيلي في المنطقة، وبين الرافضين له والمتمسكين بولائهم للأغالبة السُنيين، وعمد فيه الأواخر إلى استخدام شتى المناورات والوسائل المتاحة لأجل استخلاصه من غرمائهم قبل أنْ تشتد شوكته ويصعب ترويضه، ومن جملة الأساليب التي وظّفوها لبلوغ مرامهم:

- **التواصل المباشر**: استهل خصوم أبي عبد الله الداعي خطط الإطاحة به وإقناع الكتاميين بالتخلي عن ضّيافته، عبر التواصل المباشر مع مستضيفيه، وقاد هذا الأمر في البداية والي ميلة موسى بن العباس، الذي نحا أسلوب اللين والمداهنة معهم، وطلب منهم تسليمه لاختباره ومواجهته مع العلماء، كما لم يغفل عن نصحهم بأنّ في استضافتهم له خطرا عليهم إذا ما اتصل أمرهم بالأمير الأغلبي، غير أنّهم أبوا عليه "**وقالوا ما كنا بمن يسلّمه، ولا يخذله، ولا يدع أحدا تمتد يده إليه، وهو ضيفنا وبين أظهرنا** "[3].

ولما بلغ خبر استضافة كتامة لأبي عبد الله الداعي إلى الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي آثر أن يتواصل رأسا مع الضيف عبر عامل ميلة، وتبادلا الطرفان الرسائل، حيث خيّر فيها الأمير الأغلبي الداعي بين أمرين، إمّا أن يعتزل الكتاميين ويخرج من بلادهم، على يؤمّنه في نفسه، ويغدق عليه من النعم ما يثلج صدره، سواء أأقام عنده في إفريقية، أم فضّل العودة إلى المشرق، وإمّا البقاء في موطن مستضيفيه مع تحمّل العواقب الوخيمة الناجمة عن هذا الاختيار[4]، فردّ عليه الداعي بأنه ليس ممن يغتر بوعد أو يتوجّس من وعيد، وأنه يفتخر بالتفاف مستضيفيه حوله وذودهم عنه، ولم يتوان عن ترغيبه في إتباع ما يدعو له[5].

- **تحريض بعض بطون كتامة على الداعي**: بعد فشل أسلوب التواصل المباشر في افتكاك أبي عبد الله الداعي من بني سكتان وأحلافهم، عمد والي ميلة إلى محاولة استدراج بعض بطون كتامة التي لم تنخرط بعدُ في دعوته، عبر تخويفهم من أمره، وتحذيرهم من مغبة إيوائه،

[1] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 54

[2] الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 89

[3] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 54

[4] النويري، المصدر السابق، ج28 ، ص 49

[5] القاضي النعمان، المصدر السابق ، ص 54 ، الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 93 – 94

وتشجيعهم على التعاون معه للضغط على إخوانهم حتى يتخلوا عن إجارتهم للداعي، ووعدهم بالتقديم والإكرام، إلاّ أنّهم " **أبوا أن يكونوا له يدا على بيوتاتهم** "[1].

-**الدعاية:** أمام إحباط المناورات السابقة، وإحجام الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي عن التحرك لتقويض أمر أبي عبد الله الداعي، شنّ خصوم الأخير حملة دعاية واسعة على ضيف بني سكتان، وطفقوا في تشويه سمعته، والتشهير به، وأنّه يدعو إلى أمر مريب، وأنّ غايته هي فتن الناس في دينهم، وإفساد معتقدهم، واحتجوا في ذلك بالانشقاق الذي وقع في صفوفهم حتى عادى الأخ أخاه، والابن أباه، وأنّ ما يزيد توجّسا منه أنه يدعو لأمر مكتوم ولو كان حقا ما أخفاه[2].

ولا نستبعد أن يكون ما أُذيع حول عادة بعض أقوام كتامة في بذل أنفسهم وأولادهم لمن ينزل عليهم من الضيفان التي مرت معنا، يندرج ضمن هذه السياسة الدعائية بهدف النيل من شرف مستضيفي الداعي حتى يرغموهم على تسليمه أو طرده من مضاربهم، خاصة وأنّهم لم يكتفوا بإيوائه، بل إنّهم عقدوا مجالس ضيّافة شبه دائمة لإكرام وفود القبائل التي تقاطرت إليه من كل الجهات[3]، واستمر هذا الأمر حتى بعد الهجرة إلى تازروت، إذ لم يكتف أهل غشمان باستضافة الداعي وأتباعه فحسب، بل بلغ بهم الكرم إلى حد الإيثار، حيث تقاسموا مع ضيوفهم أموالهم ومَحال إقامتهم[4].

-**إغواء بعض رؤوس البيوتات المحتضنة للداعي:** سعى خصوم الداعي في أسلوب أخر إلى محاولة إحداث تصدّع في معسكره، عبر خلق أعداء له من الداخل، وعزفوا هذه المرة على وتر إغواء بعض رؤوس البيوتات الذين رأوا بأنّ مكانتهم في قومهم قد تزعزعت بعد استضافة الداعي في مضاربهم، لذلك فقد كان تواصلهم معهم من باب مفاوضتهم على استعادة رياستهم مقابل التعاون معهم على إخراج الداعي من بلادهم.

ولعل المميّز لموقف هؤلاء الرؤساء من هذا العرض أنّهم بالرغم من موافقتهم لخصوم الداعي في فكرة إخراجه من ديارهم، غير أنّهم رفضوا أن يكون ذلك بالدوس على قيمهم وأعرافهم القبلية، وحرصوا على أن يكون إبعاده من مضاربهم بصورة لا تضرّ بسمعة قبيلهم، ولا تلحق به معرة خذلان الضيف وتسليم المستجير بحماه، أو أن يتسبب هذا الأمر في إحداث انقسام بين بطونهم، ورأوا أنّ خير سبيل إلى ذلك هو عقد مناظرة بين الداعي وفقهاء كتامة، وهو ما اقترحه بيان بن صقلاب عندما تواصلوا معه[5].

والحق أنّ هذا الأسلوب قد أتى بعض أُكله، ذلك أنّ بيان بن صقلاب قد أصغى في مناسبة ثانية إلى المتآمرين، وبدأ يقدح في مستضيفي الداعي، ويلمّح إلى أنّ ضيّافته قد ألحقت الأذى بقومه وجعلت الأعداء يتربصون به، وهو ما بدأ ينذر بوقوع الانقسام في صفوف أنصار الدعوة[6]، وعلى الرغم من أنّ الحسن بن هارون الغشمي قد أنقذ الموقف بعد أن نجح في إقناع الداعي وكبار أعيانه

[1] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 54

[2] المصدر نفسه، ص 85

[3] الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 91

[4] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 87

[5] النويري، المصدر السابق، ج28، ص51 ، ابن خلدون، المصدر السابق ، ج4، ص 41

[6] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 86

بالهجرة إلى موطنه في تازروت[1]، إلاّ أنّ المتآمرين استعملوا مع غشمان الأسلوب ذاته، بأنْ فاوضوا محمود بن هارون الغشمي أخ الحسن على ما فاوضوا عليه بيان بن صقلاب سابقا، بعد أن لاحظوا تغيّر قلبه تجاه الداعي بسبب فقدانه لمكانته في قومه لصالح أخيه، فكان جوابه على نحو الموقف الذي كان من بيان، من اللطف في إخراجه، والميل إلى مناظرته بالفقهاء[2].

غير أنّ الداعي هذه المرّة فطن إلى الأمر وقطع الطريق على أعدائه، بأن أسرع إلى استرضاء محمود بن هارون، وأظهر حفظه لمنزلته، وبالغ في إكرامه، فما كان من خصومه إلاّ الإذعان للمناظرة كما سنتناوله في الأسلوب الموالي[3].

-**المناظرة:** لم يعمد خصوم أبي عبد الله الداعي إلى هذا الأسلوب إلاّ على سبيل المناورة، لأنهم كانوا يدركون جيدا ألاّ سبيل لفقهاء المنطقة للتغلب عليه لِما اشتهر عليه من علم وقوة حِجاج[4]، وما ميلهم إلى هذا الإجراء إلاّ على سبيل المداهنة وإظهار اللين حتى يبلغوا مرادهم، وكان أوّل من طرحه هو والي ميلة موسى بن العبّاس الذي طلب من بني سكتان تسليمه لامتحانه أمام الفقهاء، لكنهم لم يأمنوا جانبه، ورفضوا التفريط فيه أو إخراجه من بلادهم[5].

كما كانت المناظرة إحدى المخارج المشرّفة التي ارتضاها من كان له تغيّر في قلبه تجاه الداعي بسبب تأثّر منزلته بين قومه، فرأوا أنّ أنسب الحلول لإخراجه من بلد كتامة دون استثارة أهلها، أو إلحاق المعرة والنقص بالبطون التي استضافته هو عقد مجلس للمناظرة بين الداعي وفقهاء المنطقة، فإن كانت لهم الغلبة قامت الحجة عليه، وانحل عقد الضيّافة والإجارة، وطُرد من البلد غير مأسوف عليه[6].

ولئن أظهر خصوم الداعي قبولا بفكرة المناظرة، إلاّ أنّهم لم يتخذوها في واقع الأمر سوى مطية لإيجاد السبيل الأمثل لإحراج الكتاميين في ضيفهم واستخلاصه منهم، فقد وافقوا بدايةً بيان بن صقلاب على عقد المناظرة على أمل أن يستتروا وراءها حتى إذا ما برز إليهم الداعي قتلوه، إلاّ أنّ الكتاميين لما رأوهم على الحال التي خرجوا بها من العدة والعتاد تصدوا لهم ومنعوهم من الوصول إليه[7]، ومع أنّ المتآمرين استدركوا خطأهم في مناسبة ثانية عندما اتفقوا مع غشمان على عقد المناظرة بين الداعي وفقهاء كتامة، بأنْ قرّروا ألاّ يبرزوا لكتامة بمظهر المستعد للحرب، غير أنّ اشتراط محمود بن هارون الغشمي ألاّ يحضر المناظرة سوى الفقهاء وبعض خيار القوم من جانب المتربصين، فوّت على الأواخر مكيدتهم في الاستفراد بالضيف وقتله[8].

-**استخدام القوة:** بعد أن أوصدت جميع الأبواب في وجه المتربصين بأبي عبد الله الداعي، واستنفادهم لجميع أساليب المناورة لأجل إخراجه من ضيّافة كتامة وإجارتها، لم يبق أمامهم سوى الجنوح لاستخدام القوة، ومع ذلك فقد تطلّب الأمر منهم إعمال الحيلة وتدبير المكائد حتى يخترقوا صف خصومهم ولا يقاتلوهم ككتلة واحدة، لذلك جاء ميلهم لاستخدام هذا الأسلوب مستترا تحت الأساليب التي

---

[1] ينفرد ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص 42 عن بقية المصادر بالإشارة إلى أنّ أبا عبد الله الداعي هو من استنجد بالحسن بن هارون، قارن: افتتاح الدعوة، ص87، الكامل، ج6، ص 452، نهاية الأرب، ج28، ص 52، عيون الأخبار، ص 97

[2] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 86 – 87

[3] الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 99

[4] النويري، المصدر السابق، ج28، ص 51 — 52، الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 96

[5] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 54

[6] النويري، المصدر السابق، ج28، ص 51 ، 54، ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص 42

[7] الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 96

[8] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 92 – 94

عرّجنا عليها آنفا وبخاصة الأخيران منها، فقد أفضى تواصل المتربصين مع بعض رؤوس بيوتات كتامة إلى إحداث شرخ في صفوف الكتاميين اضطر خلاله الداعي إلى التخفّي[1]، وعلى الرغم من ركون الطرفين إلى حل المناظرة إلاّ أنّها انتهت في المناسبتين التي التأم الجمعان لأجلها بالالتحام بينهما بسبب سوء نية المتربصين، وإعمالهم الحيلة حتى يبرز الداعي إليهم فيستخدمون القوة لتحصيله من كتامة أو قتله، غير أنّ استماتة الأخيرة في الدفاع عنه أرغمتهم على التراجع[2].

اضطر المتآمرون بعدها إلى الاستخدام المباشر للقوة من أجل القضاء على خطر الداعي، وجمعوا لأجل ذلك جيشا ضخما ضمّ إلى جانب قوات الحواضر المجاورة كميلة وسطيف وبلزمة، أعدادا كبيرة من جيملة ولهيصة ومزاتة وملوسة، وحاصروا أنصار الدعوة في تازروت من جميع الجهات، غير أنّ الداعي ظفر بهم في عدة مواقع حتى تمكّن من تفريق جموعهم، وكان لهذه الانتصارات أثر بالغ في انقلاب موازين القوى لصالح أنصار الدعوة الذين انتقلوا من الدفاع إلى الهجوم، وصارت تازروت منطلقا لحملاتهم على كل من خالف أو تآمر[3].
تآمر[3].

ونستشف مما سبق أن ضيّافة كتامة لأبي عبد الله الداعي في مضاربها كانت محل تجاذب كبير بين مستضيفيه ومعارضيه، صحيح أنّ هذا السجال أخذ في ظاهره طابعا سياسيا بصبغة مذهبية، إلاّ أنّه في عمقه ينمّ عن متانة المنظومة القِيمية عند قبيلة كتامة، التي حاربت كافة أشكال الإغراءات، وجابهت مخاطر جمّة على أن تقبل بالدَنية والمعرّة التي قد تعتريها إذا ما خذلت ضيفها والمستجير بها، وظلت بذلك وفية لمبادئها وقيمها التي جُبل عليها ساكنتها من النجدة والمروءة والشهامة والإيثار والإجارة، وهو العامل الأبرز على ما نعتقده الذي صنع الفارق مع خصومها.

6.الخاتمة :

–شكّلت عادة إكرام الضيف وإطعام المارة أحدَ أبرز الملامح المميّزة للشخصية الكتامية، ولئن اشتركت بطون كتامة مع نظيراتها من سائر القبائل المغربية في كثير من أعرافها وطقوسها وحتى تمثّلاتها، إلاّ أنّ الطبيعة التي نفذت بها الدعوة الإسماعيلية إلى مضاربها زادت من حجم حضورها، ونوّعت من أشكالها.

–أبانت هذه الظاهرة من جانب أخر عن أنّ سلوك الكرم عند الكتاميين خلال فترة الدعوة الإسماعيلية أكبر من يُحصر في طقس اجتماعي، إذ أنّه يتصل في عمقه ورمزيته بجملة قيم ومبادئ من قبيل النخوة، والنجدة، والمروءة، والشهامة، والعطاء، التي كشف السجال الذي وقع بشأن استضافتهم لداعية الإسماعيلية عن مدى أصالتها وتعرّقها المجتمعي، وأنّه لا يمكن فهم تاريخ النشاط الإسماعيلي وتطورات أحداثه في المنطقة بمعزل عنها.

–أنّ خبر بذل الكتاميين أنفسهم وأولادهم لمن ينزل عليهم من الضيفان ينبغي أن يُقرأ ضمن السياقات المختلفة التي ميّزت المرحلة التي أُذيع فيها، واستنادا إلى هذا المنهج، وتعزيزه بالتدقيق في النّصوص التي تناقلت هذه الرواية والمقارنة بينها، ظهر لنا أنّها أقرب إلى الإشاعة من الحقيقة، وتندرج ضمن حملة الدعاية الشرسة التي جردها خصوم أبي عبد الله الداعي على مناصريه، حتى يُخيّل للأواخر أنّ احتضانهم له قد جلب لهم النّقص والمعرة، ومن ثمّ فقد وجب طرده.

---

[1] المصدر نفسه، ص 84

[2] النويري، المصدر السابق، ج28، ص 51، 54، الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 96، 100

[3] القاضي النعمان، المصدر السابق، ص142 وما بعدها، ابن الأثير، المصدر السابق، ج6، ص 451

وفي الأخير نستغل مناسبة مناقشة مسألة البذل هذه، وما اعترى روايتها من نقص وتناقض، في دعوة الباحثين إلى عدم الانسياق وراء ظواهر النّصوص، ووجوب التدقيق في مظانها وتمحيص خبرها قبل توظيفها، لاسيما ما اتّصل منها بغريب الأخبار، أو انقطاع السند، وما إلى ذلك من الأوصاف التي تستلزم الحيطة والحذر عند التعاطي معها.

قائمة المصادر والمراجع:

أ . المصادر:

- ابن الأثير أبو الحسن عز الدين، **الكامل في التاريخ**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987، ج6.
- الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد الشريف ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، ج1.
- البكري أبو عبيد ، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت.
- ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تحقيق: عبد القادر شيبة الحمد، طبعة الأمير سلطان بن عبد العزيز، الرياض، ط1، 2000، ج10.
- الحميري محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، ، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، د.ت.
- ابن حوقل أبو القاسم محمد النصيبي، **كتاب صورة الأرض**، دار صادر، بيروت، د. ت، ج1.
- ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 2001، ج6.
- الداعي إدريس عماد الدين القرشي، **عيون الأخبار وفنون الآثار**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.
- ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: ل. بروفنسال و ج. كولان، دار الثقافة، بيروت، ط3، 1983، ج1.
- القاضي النعمان، **كتاب افتتاح الدعوة**، تحقيق: فرحات الدشراوي ، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر) والشركة التونسية للتوزيع (تونس)، 1986.
- القزويني زكريا بن محمد بن محمود، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، د . ت.
- مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1985.
- ابن مسكويه أحمد بن محمد، **تهذيب الأخلاق**، تحقيق: عماد الهلالي، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2011، ج1.
- المقري محمد بن أحمد التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، دار صادر، بيروت، د.ت، ج1.
- المقريزي تقي الدين أحمد بن علي، **اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق: جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط2، 1996، ج1.
- النويري شهاب الدين، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: نجيب فواز وحكمت فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ج28.
- ياقوت أبو عبد الله بن عبد الله الحموي ، **معجم البلدان**، دار صادر ، بيروت، 1977، ج1.
- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب، **كتاب البلدان**، مطبع بريل، ليدن، 1860.

- اليماني محمد بن محمد، **سيرة الحاجب جعفر**، نشره: و.إيفانوف، مجلة كلية الآداب للجامعة المصرية، القاهرة، 1936، مج 4، ج1.

ب. المراجع:

- بنحمادة سعيد، **الأغذية والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط – مدخل لدراسة العوائد والقيم –**، ضمن كتاب: النظام الغذائي بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط، منشورات الزمن، الرباط، 2016.
- بن النية رضا، **صنهاجة المغرب الأوسط – دراسة اجتماعية –**، دار توكل، عين الكبيرة – سطيف، ط1، 2016.
- الطالبي محمد، **الدولة الأغلبية . التاريخ السياسي**، تعريب: المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1995.
- لقبال موسى، **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية – منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري–** ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1979.
- ماجد عبد المنعم، **ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط4، 1994.

ج . المقالات:

- بوبيدي حسين، **الداعيان الشيعيان: أبو سفيان و الحلواني – دراسة في النصوص ومجالات التأثير**، مجلة المعالم ، جمعية التاريخ والمعالم لولاية قالمة، العدد 18، 2015.
- عمارة علاوة، **ابن شداد الصنهاجي جامع أخبار المغرب الوسيط**، مجلة التاريخ العربي، العدد 21، 2002.

د . المراجع الأجنبية:

- A. Hanoteau et A. Letourneux **, la Kabylie et les coutumes kabyles,** 2 édition, imprimerie nationale, Paris, 1893.
- Soyong.Q, **A neural link between generosity and happiness**, Nature Communications, 2017, p 1, 6